أحمد بهاء الدين
أربعون عاماً من الكتابة الراقية

عبد العزيز المقالح

إشارات أولى :

يتنوع محور الثقافة في نتاج الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين تنوعاً خصباً ليغطي اتجاهات عدة أبرزها وأقربها إلى نفس القارئ اتجاهان اثنان : أحدهما الأدب والآخر الفن، وهما كسائر الاتجاهات في كتاباته العميقة المستعصية - ببساطتها - على الانغلاق والتعقيد يكشفان عن كاتب متعدد الاهتمامات يعتنق في مجال الكتابة عموماً مبدأ الحرية الذي يجعل الكاتب حراً في تناول أي من الموضوعات التي يشاء بعد أن يختار لها الاتجاه المناسب، السياسي، الفكري، الأدبي ... الخ، مع حرص تام على اختيار الأسلوب الذي يعطي لكل هذه الموضوعات سموها وجاذبيتها.

تنوع في الموضوعات ، ووحدة في الأسلوب، هكذا هو أحمد بهاء الدين صاحب الصوت الأنقى في الصحافة العربية، وأحد المفكرين الذين خاضوا معركة تحرير العقل العربي، وراهنوا على أن يعيدوا إليه الثقة بقدرته على الإبداع وعلى الاختيار، وعلى تجاوز الشعور بالنقص تجاه الآخرين الأكثر مدنية وتقدماً. وهو لذلك يكتب المقال السياسي والبحث الفكري والنقد الفني بلغة أدبية مشرقة تشد القارئ وتلامس وعيه وعاطفته معاً وتقوده من أول سطر في المقال إلى آخر كلمة فيه. وإذا كان الكتّاب في الوطن العربي يشبهون الكتب في جودتها أو رداءتها وفي قدرتها على التأثير، فإن الكاتب أحمد بهاء الدين كتاب جميل يأسرك بالمنطق الواضح كما بالأسلوب المشرق، فما كتب شيئاً أياً كان موضوعه سياسياً أو تاريخياً أو ثقافياً إلاّ وأحس القارئ أنه من الصعب أن ينصرف عنه قبل قراءته

كاملاً، وربما عاد إليه مرات ومرات. وأعترف أنني قرأت كتابه أيام لها تـاريخ، مثلاً، أكثر من مرة ورجعت إليه للاستئناس بأفكاره العميقة أكثر من مرة أيضـاً، يشدني دائماً وضوح الرؤية وجمال الأسلوب والجهد المبذول فـي بنـاء الجملـة القصيرة والفقرة الطويلة عبر مؤثرات داخلية حادة ترتقي بالسياسي والتاريخي إلى قمة الأدبي :

" أيها القارئ !

هل عرفت أحدث تعريف للإنسان ؟

لقد قيل مرة : أنه حيوان ناطق، ثم تبين أن الببغاء تنطق.

وقيل : إنه حيوان ضاحك، ثم تبين أن القرود تضحك.

وقيل : إنه حيوان عاقل، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل وإن كـان العقل درجات !

وحار العلماء طويلاً : فالإنسان كائن حي، يأكل ويشـرب وينـام ويعقـل كغيره من الحيوانات .. ولكن المؤكد أن هناك شيئاً ما يميزه عن الحيوان، شـيء ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة.

وأخيراً اهتدى العلماء إلى التعريف الدقيق : الإنسان حيوان ذو تاريخ !

ما معنى ذلك ؟

معناه أن الميزة الأولى تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات هي أن كـل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها، وأنه بهذه الميـزة - وحدها - يتطور، وعلى العكس من ذلك الحيوان. فالأسد أو القط أو الكلب الـذي كان يعيش في الأرض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التـي نراهـا اليوم، في الصفات والطباع نوع الحياة.

أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذي تجده في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم. مصيدة وقطعة جبن ! ولو كان فـي بيتـك عشرة فيران لاستطعت أن تتصيدها واحداً بعد آخر، يوماً بعد يوم، بنفس المصيدة وقطعة الجبن. ذلك أن الفئران ليس لها تاريخ، ولا تستفيد مـن تجربـة. هـي لا تعرف أن في اليوم السابق داخل الفأر ليأكل الجبن فأغلقت عليه المصيدة، وهي قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزى، فلا تتحاشى أبداً قطعة الجبن.

وعلى العكس من ذلك، الإنسان، إنه يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس، ومنذ مائة سنة، ومنذ آلاف السنين. فهو قادر على أن يتجنب زلاتهم، ويستفيد من تجاربهم، ويضيف إلى اكتشافاتهم، وكل جيل لا يبدأ من جديد ولكن يضيف إلى ما سبق. وهذا هو التقدم ".

هكذا هي لغته دائماً دقيقة متماسكة لا يشوبها ما يسبب القطيعة أو سوء الفهم بين القارئ والكاتب، وكان في مقدور صاحب هذا الخطاب وقد امتلك هذا المستوى البديع من التعبير أن يصبح واحداً من المبدعين أو النقاد لكنه آثر الصحافة بوصفها مجال التعبير الأوسع، ربما ليستطيع من خلالها التحدث إلى الناس يومياً أو أسبوعياً عما يؤرقهم من مشاكل وحاجات ملحة، وما يحيط بهم من أحداث حادة، وهو ما جعله بعد وقت قصير من اشتغاله بالصحافة في طليعة الكتاب المهمومين بقضايا أمتهم، وكرسه واحداً من أبرز الصحافيين الجادين الذين يدعون قراءهم إلى رؤية الواقع المحيط بهم من الزوايا المختلفة، بل ومن الذين آلوا على أنفسهم إعطاء القارئ صورة واضحة عن الحياة بأبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية.

وفي ما يلي محاولة لعرض أهم ما ورد في المحور الثقافي عن الأدب والفن في كتابات بهاء، مع التأكيد - قبل البدء - على حقيقة أن هذا الجانب يتطلب المزيد من الدراسات والأبحاث المعمقة لامتزاجها بالسياسي والفكري حيناً وتقاطعهما معهما أحياناً، ولأن المنهج الذي قامت عليه هذه المحاولة قد أستمد حريته وعفويته من المناهج الحرة والمفتوحة التي أنجز الكاتب الكبير في ظلها كل كتاباته المرتبطة بالثقافة وبالأدب على وجه الخصوص.

١- الأدب .. من زورق القانون إلى زورق الصحافة والكتابة

ما الذي يفصل الكتابة الأدبية عن غيرها من أشكال الكتابات ؟ سؤال أزعم منذ البداية أنه جابه كل الباحثين في طبيعة الكتابة بعامة، والأدبية منها بوجه خاص. فقد وضعه - على سبيل المثال - الناقدان رينيه ويلك وأوستن وارين في مدخل كتابهما عن " نظرية الأدب " وصاغاه على النحو التالي : ما الذي يعد أدباً وما الذي لا يعد ؟ وما طبيعة الأدب ؟ وقد خرج الناقدان بإجابات مطولة يمكن إيجازها - بعيداً عن المصطلحات والتعقيدات النقدية - في وجهتي النظر التاليتين :

أولاً : وجهة نظر تذهب إلى تعريف الأدب بأنه كل شيء " قيد الطبع " أي كل شيء مكتوب.

ثانياً : وجهة نظر ترى أن كثيراً من حقول المعرفة المكتوبة تجاوز نطاق الكتابة الأدبية ولا تعد أدباً (لأن طبيعة - أي أدب - تبرز كأوضح ما تكون حين يُرد إلى نواحيه الأصلية، فمن الجلي أن مركز الفن الأدبي يقع في الأنواع التعقيدية من شعر غنائي وملاحم ودراما).

وانطلاقاً من هذا المفهوم شبه المحدد لطبيعة الأدب يقع عالم الصحافة الساحر والمدهش والزاخر بالناس والوقائع والأحداث خارج منطقة الأدب. كما يبدو لي البارزون من رجال الصحافة ، وهم شريحة من الكتّاب الذين خسرهم الأدب وأفاد منهم الفكر والسياسة. وقليل هم أولئك المبدعون الذين خسرهم عالم الأدب في الوطن العربي ليفيد منهم عالم الصحافة، وفي مقدمة هؤلاء يقف أحمد بهاء الدين الذي عاش في بداية حياته العملية حائراً بين المحاماة والكتابة الإبداعية قبل أن تستأثر الكتابة الفكرية والصحفية بكل طاقاته، وربما تكون هذه الحيرة قد رافقته مع بداية انتمائه إلى كلية الحقوق التي كانت مناهجها - حتى أيامه - تتراوح بين دراسة الأدب والقوانين والعلوم السياسية والاقتصادية، ولم تكن تلك المناهج قد ابتليت - كما هي الآن - بهذا الكم من المعارف المستجدة في القوانين وعن المنظمات الدولية التي تتكاثر عاماً بعد عام. وهو في مقال له بعنوان " كلية الحقوق .. وحديث الذكريات " يشير إلى الأثر الإيجابي لدراسته في هذه الكلية التي علمته طريقة التفكير وزودته بمنظم لدرجة حرارة الانفعال : " كم كنت حزيناً، لأنني كنت بعيداً عن القاهرة يوم احتفلت كلية الحقوق بالعيد المئوي لها. ذلك لأنني أحد خريجي تلك الكلية العتيدة، التي طبعت موجات الأثير على جدرانها عدداً من أعظم الأصوات التي عرفتها مصر والعروبة. وإذا كنت لم أشتغل بالقانون إلا قليلاً، إلا أن الأثر الذي تركته كلية الحقوق في نفس تلميذها لا ينمحي، إذ كان قد دخلها عن حب وشغف، لا عن طريق " مكاتب التنسيق "، ثم أنني إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد خمس سنوات فقط إلا أنني كثيراً ما اكتشفت فجأة أنني مازلت أشتغل بالقانون من ناحية ما نسميه " بالقانون الخاص " وهي القوانين المدنية والجنائية وغيرها، إلا أنني بقيت على

صلة دائمة بما نسميه " القانون العام " أي الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولي والقانون الدستوري، والقانون الإداري، أي القوانين التي تنظم حياة المجتمعات والشعوب والأمم وليس الحياة الخاصة للأفراد، كما هو الحال في كل ما نسميه " القانون الخاص ". ولكن الأهم من ذلك أنني فعلاً اكتشفت عادة أنني مازلت أشتغل بالقانون، لأنني دائماً أجد نفسي متلبساً بالتفكير في أي موضوع بطريقة " قانونية "، أو بطريقة متأثرة بالتفكير القانوني إلى حد بعيد.

ذلك أن دراسة القانون تعلم المرء طريقة خاصة في التفكير. تزود صاحبها بما يشبه " الترموستات " أو منظم درجة الحرارة، يقرأ الإنسان في الأدب، ويحلق وراء الفنون، ويجوب آفاق الفلسفة. وهذه أشياء ربما كانت هي جوهر الفكر، ولكن من درس القانون - فيما يخيل لي - يجوب هذا كله وقد ربطه التفكير القانوني إلى ارض واقعية معينة. فهو ينظم تفكيره ويضع من صوره ميزاناً دائماً يزن به كل ما يعرض له من أفكار وأمور. ويخلصه من تيارات " الفن للفن " و" الفكر للفكر " في حين يربطه بأن الفن للحياة. والفكر للحياة. والسياسة للحياة. وكل شيء بدؤه ومنتهاه للحياة، والناس. وأن الرؤية المتأثرة بالقانون هي الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق. أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة. ولست هنا أفاضل بين شيئين. فحياتنا بلا أحلام لا تساوي شيئاً. وبغير الأحلام لا تتحقق الأشياء العظيمة. ولكن حياة تقوم على الأحلام هي بالونات ملونة تطير في الهواء وتضيع. وليست مركبات فضاء محددة الغرض، محكمة التوجيه ".

وفي مكان آخر من المقال نفسه نراه يشير إلى أنه حين تخرج من كلية الحقوق كان قد اكتشف أن مهنة المحاماة هي آخر ما يناسبه فليس من طبيعته أن يواجه الجمهور أو يتحدث إليه وكأنه على خشبة مسرح ! : " ثم أنني أقل من السن القانوني لممارسة المحاماة ! ثم إن الكلمة المكتوبة صارت أوسع انتشاراً من أعظم كلمة تقال في قاعات المحاكم ! وكان حظي من ممارسة القانون أصعب جوانبه، بالنسبة لي : وكيل نيابة. مهمتي أن أضيق الخناق على المتهم. وأن أثبت جريمته بدل أن أثبت براءته. ومرة أخرى جريمة بالمعني القانوني، التي قد يكون في نفسي سبب ضد اعتبارها جريمة. وبعد سنوات قليلة قفزت من زورق القانون

بشكله المباشر إلى زورق الصحافة والكتابة، والبحث عن الحق والواجب والقانون بمعانيها الأوسع ".

وفي مقال عن " التراث العربي .. " يُفصح الكاتب الكبير عن بدايات إقباله المبكر على القراءة وحرصه على اقتناء الكتب بوصفها الوسيلة الأولى للمعرفة : " وقد عرفت هذا النوع من حب الكتب الذي بدأ طبعاً بحب قراءة الكتب - وأنا صبي شاب - في دار الكتب أو بالاقتراض. ثم تطور إلى حب اقتناء الكتب وليس الاكتفاء بقراءتها، وكأن المرء حين يقتني الكتاب فإنه " يمتلكه " كما يمتلك أي معشوق ".

واستقراء هذه الإشارات الغنية بدلالاتها الموضوعية يضعنا وجهاً لوجه مع المكونات الأولى لهذا المنحى الموسوعي في ثقافة هذا الكاتب الذي لم تشغله الهموم الثقافية في مصر والوطن العربي الكبير عن متابعة هموم الثقافة في العالم، كما تكشف عن ذلك عشرات المقالات والأعمدة، ومنها مقال بالغ الأهمية عن " سولجنستين " الأديب الروسي المنشقّ الذي قدّمه إلينا في أواخر السبعينيات بالكلمات التالية : " سولجستين، الكاتب الروائي الأديب، صار - رضي بعض الناس أو كره - من علامات العصر الفنية والثقافية. وربما صار نموذجاً ضمن نماذج أخرى مختلفة - على حيرة الفنان في هذا العصر المضطرب الذي نعيشه. وإذا قلنا حيرة الفنان، فكأننا نقول حيرة العقل والضمير والفؤاد .. فالكاتب المفكر، أو الفنان الحقيقي، يُفترض فيه أنه يحس ويرى ما لا يراه ولا يحسه الآخرون ربما تماماً كما نسمع أن القطط والجياد تحس بقدوم الزلازل قبل وقوعها بأيام. بل قبل أن يحس بها أو يسجلها أدق جهاز " سيسوجراف " في العالم. حدث هذا قبل زلزال الصين منذ سنة وقبل زلزال سالونيك في اليونان قبل شهرين . ذلك أن الكاتب المفكر الصادق، أو الفنان الموهوب، من شأنه أن يكون عاكفاً باستمرار على تأمل الحياة من حوله، الأمر الذي يمكنه من اختراق مظاهر الأشياء، والنفاذ إلى ما وراءها. فقد يرى الكاتب في مجتمع متخلف بذرة نمو وارتقاء. وقد يرى في مجتمع حافل بالبريق، بذور رماد وفناء. ولكن الكتاب المفكرين، والفنانين ليسوا أنبياء. وقد تخطئ نبواءتهم أو حساباتهم. إلا أن أفكارهم عادة تنبهنا إلى أشياء هامة، قد لا تكون ظاهرة لكل العيون. وبذلك تنشط أذهاننا ".

وكم يحزّ في نفسي أن المراجع المتاحة لي أثناء كتابة هذه المقالة لم تشتمل في صفحاتها الكثيرة على شيء من المحاولات الأدبية الأولى التي دخل عن طريقها بهاء إلى عالم الكتابة الأدبية شأن الكثير من زملائه الذين شاركوه رحلة العمل الصحفي من داخل دائرة الثقافة القانونية، ويحضرني منهم الآن الصديق كامل زهيري الذي احتفظت له المراجع الأدبية بنماذج من كتاباته الإبداعية الأولى، منها هذا النموذج الشعري الراكض في فضاء السوريالية :

في عش
ينام رجل على كرسيين وفمه في أبعد محيط.
في الحلقوم مسرح
وفي المسرح نهر،
القلق أبن القلق
الضحك أبن الضحك أبن الضحك أبن الضحك
كالشعر في الماء أحس الوحدة
من جديد، تمر على الوجه المتعب.

أين بدايات أحمد بهاء الدين ؟ سؤال سيبقى مثاراً، وقد يشكل في الأيام القادمة حافزاً لدى الدارسين وعشاق البحث عن المحاولات الأولى لمشاهير الكتاب، وحتى يتم العثور على شيء من تلك البدايات التي لابد أن يكون قد ظهر شيء منها في واحدة أو أكثر من المطبوعات التي كانت تزخر بها قاهرة الأربعينيات، وسوف أكتفي هنا بتقليب بعض ما بين أيدينا مما أنجزه في الحقل الأدبي :

أ - في اللغة :

ولأن هذا الجزء من المقدمة معني بالجانب الأدبي في هذا المحور من كتابات الكاتب الكبير، فإن استفتاحه بالحديث عن اللغة العربية يشكل المدخل الصحيح إلى موقفه من الأدب، وفي مقال له بعنوان " اللغة العربية سياسة وحضارة واستراتيجية "، نراه يتساءل : " هل مازال العالم العربي، بتمزقاته وصراعاته، وانشغاله بتوافه يومية، قادراً على أن يخصص من عقله وماله

ورجاله، جزءاً يعمل للقضايا ذات الحجم الاستراتيجي الضخم ؟ أم أن ما سيقوله أي كاتب في مثل هذه الأمور يعتبر " ترفاً " لا نقوى - ونحن مشغولون بما نحن فيه - على التفكير والتدبير والعمل ؟ بل مجرد إدراك أهمية ؟ ... ".

الموضوع عنوانه " اللغة العربية " ولكن ليس جوهره هنا النحو والصرف والإعراب. بل " اللغة " كسلاح، أو كعنصر استراتيجي، يحيي الأمم ويميتها ويقيم الحضارات ويهدمها، ويشكل الجغرافيا البشرية والسياسية للعالم ...

إن السياق هنا لا يحتمل التوسع في الاقتباسات، ومع ذلك لن تتوضح أبعاد الرؤية الاستراتيجية اللغوية كما يراها الكاتب ما لم يقف القارئ على جوهر هذه التساؤلات : " ولكن الآن. وقد توفر للعرب المال الهائل وقد افتتحت أفريقيا وآسيا وأقبلت عليهم. فلا يعود لنا عذر في هذا المجال. وإن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة تبحث حقاً في هذا وتتلمس وضع استراتيجية لها ولكن بملاليم ؟ إن نصف الملايين التي تنفق في شراء السلع حتى الأسلحة القديمة، لا تحقق الفوائد الاستراتيجية التي يحققها استخدام اللغة العربية في آسيا وأفريقيا إلى أقصى مداه ".

وبما أن لحظات من الشك في مستقبل اللغة العربية تكاد تعتري كل من يتابع ما يحدث على الساحة العربية، فإن موقف الكاتب الكبير ونظرته العميقة تجاه ما يحيط بلغتنا تستدعي وقفة أخرى مع واحدة من مقالاته المهمة بعنوان " اللغة العربية سلاحاً سياسياً واستراتيجياً وحضارياً " وقد أشار في مقدمة هذا المقال إلى أنه يحب أن يعود إلى هذا الموضوع من حين إلى آخر، إحساساً منه بقيمته العميقة، ورغم أنه خاص باللغة العربية إلا أنه، كما يقول : " ليس موضوعاً لغوياً ولا أدبياً ولكنه موضوع سياسي وحضاري ".

وما اللغة فيه إلا أداة.

واللغة على أي حال - في شتى العصور واللغات - هي دائماً أداة. إنها وسيلة لا غاية. حتى إذا نظرنا إليها من منطق أهل البلاغة والفصاحة - قبل أن يغضب أحدهم - فإن البلاغة في اللغة أداة لحسن التعبير، وإتقان توصيل الفكرة أو العقيدة، وهذه هي بلاغة عصور النهضة .. في حين كانت البلاغة هدفاً في حد

ذاتها، في عصور الانحطاط. فحين يتبارى الناس في اللغة من أجل اللغة معناه الإفلاس في الفكر والعلم اللذين خلقت اللغة أداة لتوصيلهما.

تماماً كالذي يركب السيارة مثلاً للوصول إلى هدف. والذي يركب السيارة لمجرد إظهار قدراته البهلوانية على القيادة لا غير.

وأحياناً لا يشعر الناس بالشيء القريب، الميسر، المعمول به يومياً. حتى ولو كان أهم وأخطر شيء، كالهواء الذي نستنشقه ونعتبره بالتالي أبسط الأشياء رغم أنه مادة الحياة.

وفي هذا المجال نجد أن اللغة أبرز هذا النوع من الأشياء في صنع الحياة والحضارة. ولكن لأننا نتعلمها بالولادة والنمو، ونستعملها يومياً في كل شيء، لا نلتفت أحياناً إلى أن اللغة هي أحد أهم الأشياء التي شكلت تاريخ الحضارة الإنسانية، ورسمت مجرى التاريخ : أكثر مائة مرة مما ساهمت به الجيوش، والأسلحة الباهظة، والحروب الكبرى.

فاللغة كانت أداة الرسالات السماوية. والمذاهب الدنيوية. والمعاملات الإنسانية حتى شتى درجاتها ومستوياتها : إنها " العملة الأبدية الأزلية المتداولة بين الناس جميعاً. وإذا كانت الآية الكريمة تقول : { وجعلنا من الماء كل شيء حي }[1]، فاللغة خلقت من الحضارات والفنون والعلوم كل شيء حي. اللغة أقامت حضارات وماتت مع حضارات. وملأت صفحات سعتها بالقرون ".

بهذه السطور تكتسب قضية اللغة معنى يكاد يكون غائباً عن أذهان كثير من المثقفين والمشتغلين بالكتابة. فضلاً عن الغالبية الساحقة من الناس العاديين الذين يتكلمون هذه اللغة دون أن يدركوا أن الأفكار هي الألفاظ، وأن الكلمات المنطوقة أو المكتوبة هي صورة الإحساس المرابط في الوجدان. ويبدو أن الكاتب العربي لم يدرك بعد أن عليه، قبل أن يبشر بأفكاره السياسية والاجتماعية، أن يختار دور حارس الشرف للغة التي يتكلمها ويكتبها وإذا لم يفعل فإن كلامه المكتوب شأن كلامه المنطوق سيذهب أدراج الرياح ولن تكتب له الأيام البقاء.

وتصلح هذه الإشارات لتكون مدخلاً إلى حوار بين المتحمسين للغتهم القومية وبين من يكتبون بهذه اللغة ويناصبونها وقواعدها العداء. وطالما بقيت

---

(1) القرآن الكريم، " سورة الأنبياء " الآية ٣٠.

اللغة العربية في مثل هذا الوضع الذي يثير القلق فإن أوضاع الأمة التي تتحدث بها لن تتغير ولن تكون أحسن حالاً، فاللغة كما يشير بهاء نقلاً عن المفكر العربي المرحوم ساطع الحصري تشكل العنصر الأهم بين كل العناصر التي يتشكل منها كيان الأمة ولن أطوي هذه الصفحات قبل أن أتوقف مرة أخرى عند العلاقة بين العروبة والإسلام من خلال دور اللغة كما يتمثله كاتبنا الكبير : " فالعروبة فضلاً عن أهميتها في حفظ أمة العرب بكل ما فيها ومن فيها، فهي أيضاً كانت العقل الأساسي للإسلام في مده وجزره ".

لذلك لم تكن حرب الاستعمار على اللغة العربية هينة ولا متساهلة، فقد طوردت الثقافة العربية - ووسيلتها الأولى اللغة - مطاردة عنيفة. أحياناً من بعض الإمبراطوريات الإسلامية ذاتها التي لم تفطن إلى دور اللغة العربية الحاسم، كالإمبراطورية التركية مثلاً. ولكن في معظم الأحيان من الإمبراطوريات التي لا هي عربية ولا مسلمة ...

والخطوة التي أدعو إليها الآن وأرى كل الظروف مواتية لها، ليست " تعريب " العالم الإسلامي كله من الصين إلى روسيا إلى آخر الأرض.

ولكن فقط، أن " نسترد " إلى العروبة، الشعوب التي قبلت الإسلام واللغة العربية معاً. والتي فقدت لغتها العربية لا طواعية واختياراً، ولكن بالقهر والعنف والمطاردة وأعواد المشانق.

وقد حدث هذا في أفريقيا بالتحديد.

ويمضي الكاتب الكبير بعد ذلك في سرد الأدلة على المعاناة التي لقيتها العربية والناطقون بها في كل من الساحل الإفريقي الشمالي الممتد على البحر الأبيض المتوسط والساحل الإفريقي الشرقي الممتد على البحر الأحمر حتى أخره، وهي معاناة يلعب الغزو الاستعماري فيها دوراً مكشوفاً وخالياً من كل غطاء، مستخدماً - كما سبقت الإشارة - أساليب العنف والقهر والمطاردة لا أساليب التنافس الثقافي اللغوي المشروع. وبقدر ما تتركه هذه الإشارات البالغة الوضوح في نفس القارئ من قلق على مصير اللغة العربية في الأطراف فإنها تثير قلقه أيضاً على وضع اللغة في المركز حيث الخطورة تكتسي مفعولها الملموس من خلال غياب أدنى حد للتوحد على صعيد الثقافة واللغة بالرغم من الهيئات

والمنظمات الهزيلة المحرومة من أي دعم حقيقي، كما هو الحال مع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو العربية) التي خصها الكاتب في مقالاته بأكثر من إشارة.

وفي مقال آخر عن اللغة العربية، يبتعد الكاتب فيه عن معنى الخوف على اللغة العربية من العدوان الخارجي ليقترب من عدوان لا يقل خطورة وتأثيراً في مستقبل هذه اللغة ومفرداتها حين يتم استخدامها كشعارات معلقة في الفضاء أو كلمات لا تجد لها مكاناً في التطبيق فتفقد سمعتها وتغدو مفرغة من كل معنى : " اللغة لم تكن أبداً " محايدة " والكلمة الواحدة قد تستخدم في مجال يحمل كل معاني الجدية. وأحياناً تصبح من كثرة استخدامها في غير موضعها تحمل لدى الناس كل معاني السخرية، والكلمة في مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة، ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذي دفعنا نحن العرب إلى الإنفاق من هذه اللغة بإسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة في الفرن الأحدث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزاً ما في هذا النوع من " العملة " ...

وإذا كانت الكلمات من " القاموس السياسي " للغة، فهي أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيراً ما تكون عرضة للاستخدام الخاطئ المتعمد من رجال السياسة أو الكتابة أو للاستخدام في مجرد تخدير الرأي العام. فتفقد أعز الكلمات معناها أو بمعنى أصح تفقد " وقعها " على النفس، وهي القيمة الأساسية للكلمة ... ونأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة مثل " الوحدة " أو " الثورة " أو " الديمقراطية "، كلمات كبيرة جداً لكن بعضها لحقه " الاجتهاد " من كثرة الاستعمال اللغوي، وانعدام الاستعمال ".

بهذه الصيغة الأخيرة يقترب الكاتب من الرؤية الصحيحة، ويؤكد دون أن يقول ذلك مباشرة أن نسبة الانتهاكات التي تتعرض لها اللغة العربية من أعدائها ومن أبنائها على السواء توازي نسبة الانتهاكات التي يتعرض لها الوطن العربي نفسه، وهي نسبة لا تخلو من دلالة تدين التقصير وتكشف عن أن خطورة الصراع تكمن في جهل أبعاده ومكوناته، ولو أننا قد نجحنا في الدفاع عن لغتنا لما فشلنا في

الدفاع عن وجودنا وعواصمنا، فاللغة الحية - كما قال عنها تماماً - كالهواء الــذي نستنشقه ونعتبره بالتالي أبسط الأشياء رغم أنه مادة الحياة.

ب- في الشعر :

أزعم أنني أعرف بهاء معرفة جيدة، وأن اللقاءات الطويلة التي جمعتني به هنا في صنعاء وهناك في القاهرة كانت كافية للتعرف إلى كثير من الجوانب فــي ثقافته الموسوعية التي أهّلته ليكون واحداً من أهم وأبرز المثقفين العرب في هــذا العصر، وأجزم أنه لم يكن صحفياً بارعاً ومفكراً وحسب وإنما كان بالإضافة إلى ذلك أديباً يهوى الفن والشعر ويتمتع بذاكرة تحتفظ بقدر كبير من الشــعر القــديم والحديث. وقد كانت مقالاته - على اختلاف موضوعاتها - أشبه بلوحــات أدبيــة عذبة اللغة رائعة التعبير، وحين كان يقترب من الشعر متحدثاً أو كاتباً فإن حديثه يأتي ككتابته فيضيء الموضوع وينيره ويضعه أمام المستمع أو القارئ واضــحاً متألقاً، وكأنه أحد المتخصصين في شؤون الشعر ولغته وقضاياه الاجتماعية. زار اليمن في أوائل الثمانينات، وكتب عن موجاتها السياسية التي تترواح شداً وجــذباً وأملاً ويأساً منذ صلته الأولى بأبنائها في الخمسينات ولم ينس أن يعطي الشعر في اليمن قدراً من الاهتمام وأن يقدم في افتتاحيته لمجلة العربي نماذج منه مســبوقة بدراسة تحليلية جاء فيها : " كنت أظن أن العراق أكثر بلد عربي ينجب الشعراء. فأنت في بغداد إذا وقفت عند محل تشتري سجائر، ودار بينك وبين صاحبه حديث ما، سرعان ما يخرج من أحد أدراجه قصيدة من نظمه. ولكن اليمن ربما كانــت هي أكثر بلد يلد الشعراء ... ومن الممكن تفسير ذلك بأشياء كثيرة. فلأن اليمن هو البلد الذي يعيش أكثر قرباً إلى حياة العرب البدوية الأولى، حين كانت الكتابة غير شائعة، وبالتالي كان الشعر هو أرقى وأبقى طرق التعبير والحفظ والانتقال، فــإن اليمن كذلك استمرت فيها ظروف تفوق الشعر على غيره من وســائل التعبيــر. وليس كل مجتمع بدائي يملك هذه القدرة على إنتاج الشعر، فالشعر لا ينــتج مــن مجتمع تنقصه كل وسائل الحضارة، إلا إذا كان في باطن هذا المجتمع طاقة للخلق الفني، وفي دمنه تراث قديم، ولديه رغم كل شيء حاجة للتغيير، ذلــك الاحتــدام الداخلي الذي ينتج أحد أهم وأصعب أنواع الإنتاج الفنــي كالشــعر، إنــه بخــار

متصاعد من بركان حي، ولو كان البركان خامداً لما تصاعد منـــه أي حمـــم، ولا حتى أي بخار.

لا يدهش المرء لغزارة الشعر، ولكن بجودته وتفوقه. ولكن الظلم العربـــي العام لليمن ينسحب على شعره وشعرائه. فهو منشور ولكنه غير منتشـــر خـــارج اليمن. لم يقدمه النقاد المتخصصون - ولست منهم - إلى الشرائح العريضـــة مـــن قراء الشعر العربي، فبقي مظلوماً مجهولاً بينما تمتلئ الصحف العربية الكبـــرى بأي كلام موزون مقفى على أنه شعر عظيم، مزين بصور الشاعر في " لقطـــات فنية كأنهم نجوم سينمائيون ".

وأبرز موضوعات الشعر اليمني، توضح لنا نوع الاحتدام الـــداخلي الـــذي يبحث لنفسه عن منفذ. فهناك الشعر الذي خاطب " الشرشف ". وهو ذلك الغطـــاء الأسود الذي يحجب المرأة تماماً، ومن سن مبكرة جداً، حتى ما لا خـــلاف فـــي الشريعة على عدم ضرورة حجبه أي الوجه والكفين. وهناك شعر الحنـــين إلـــى الوطن. فاليمني يسافر إلى آخر الدنيا ويخالط أرقى المجتمعات ولكنه ينهج الشعر بغزارة في موضوع الحنين إلى الوطن الفقير المحروم في قلق غريـــب وحنـــين هائل. وهناك شعر التمرد، التمرد العام على كل شيء وشعر التمرد اليمني أعنف من أي شعر آخر. ذلك أن قهر القرون الجاثمة يجعل رد الفعل في نفس مســـتوى العنف، والجرأة والاندفاع بنفس درجة القهر، كما يشد الإنسان كل قواه وعضلاته حتى يزيح عن صدره حجراً ثقيلاً هائلاً لا يريد أن يتزحزح ".

هكذا، كلما مضيت في تقليب أوراق هذا المحور وجدت أنه من الصـــعب إجمال ما قالته أو بالأصح ما تضمنته من قضايا لأنها تكاد تكون مجملة مـــوجزة تحمل في سطورها القليلة نسيجاً هائلاً من الأفكار والمعلومات، وليس ذلك غريباً فصاحبها واحد من أبرز كتاب الأعمدة الناجحين في الوطن العربـــي، والعمـــود الناجح هو ذلك الذي يختزل أفكار كتاب كامل في عدد قليل من الســـطور وبقـــدر واعٍ من التركيز والتكثيف، كما يفعل العمود التالي الذي يختزل فيه الكاتب عـــن طفولة الأديب ووظيفة الشعر وتميزه عن بقية الفنون الأدبية، ثم محنته المعاصرة وسط ضجيج الأصوات التي لا تكف عن الصخب ولا تترك مساحة صغيرة مـــن الزمن الخيالية لسماع صوت الشعر، وهذا العمود من آخر ما نشره الكاتب الكبير

في يومياته في الأهرام. وقد كان تعليقاً على لقاء الرئيس المصري بالأدباء في معرض الكتاب : " أغرقنا الأدباء في أحاديث السياسة وقضايا الخليج وإسرائيل والخطة الخمسية .. إلى آخره والأدباء حين يعبرون تعبيراً فنياً - بالرواية والقصة والشعر - يبدعون مهما كانت أفكارهم، ولكنهم حين يحاولون معالجة المشاكل معالجة مباشرة بأسلوب الجدل أو المقال السياسي والاقتصادي فهم لا يتقنون ذلك. والكاتب المباشر يكتب بالمسطرة والقلم والحساب وبنظر عقلي محض. أما الأديب الفنان فهو طفل كبير. مصدر إبداعه أنه خارج عن حدود القلم والمسطرة والبرجل. فزكي نجيب محمود " مفكر " وليس فناناً، لذلك كان الوحيد الذي قال كلاماً يدخل في ميدانه، حين تحدث عن دور القلم والمعرفة الإنسانية الحقيقية المفتقدة في إعلامنا وأسلوب حياتنا.

كذلك نجح الشاعر محمد التهامي وسط الصخب السياسي في أن ينتزع دقائق ينير فيها قضية الشعر ! هذا الفن الذي لا يجد لنفسه مكاناً في حياتنا الصاخبة اللاهثة وكنت قبلها قد قرأت له ديوانه الجميل الأخير أغنيات العشاق والوطن أقلب فيه صفحات حياتنا ولكن بعين الشاعر ولغة الشاعر، وهي غير عين الكاتب السياسي أو المؤرخ أو صاحب الريبورتاج. وما أحوجنا أحياناً إلى أن نريح عقولنا المكدودة ونضعها على وسادة من العاطفة المتدفقة ! وهي كالشعر تذكرنا أن الحياة لها جانب آخر ولون آخر.

والعالم كله فيه سؤال هو : هل نحن في زمن بلا شعر ؟ فمحنة الشعر عالية. الشعر أبن الوقفة، والتأمل، والهمس الصاعد من النفس. وهي أمور لا يسمح بها ضجيج هذا العصر وسرعته ولكن الشعر له مستقبل في العالم العربي بالذات. فالفراعنة خلدوا حضارتهم بالحجر والغرب بفنون المسرح والموسيقى والرواية. أما العربي فإنه منذ ولد وعبر عن نفسه بالشعر، عرف الشعر قبل أن يعرف القراءة والكتابة. فالشعر جزء من لحمه ودمه.

كنت جالساً في حفل عربي بجوار سير أنتوني ناتنج ، وألقى بعض الشعر. ورأى أنتوني نانتج الجمهور يتمايل. وقال لي : الآن عرفت لماذا يحرم دينكم الخمر، ذلك أن لكم لغة تدير الرؤوس ".

كم فكرة في هذا العمود القصير ؟ وأي منها يستطيع الدارس أن يحذفه ليخفف من مساحة الاقتباس ؟ إن الكاتب وفي مجال كتاباته الأدبية بخاصة يكتفي بالملاحظة الدقيقة والإشارة الدالة، فهو لا يكتب بحثاً شاملاً يحتاج إلى المناقشة الموسعة والمقارنة المتكررة، كما يفعل الدارس الأدبي الأكاديمي، بل يسعى إلى تضييق المقولات المطولة وتحويلها إلى إيماءات أو إلى فكر مجرد من الزوائد اللفظية والمعنوية مع حرص واضح على تجنب الوقوع في براثن الإيجاز المخل.

ولعل مقاله الذي ظهر افتتاحية لـ العربي بعد وفاة الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، لعله أوسع ما كتب - في حدود ما أعلم - عن الشعر والشعراء، ويمكن اعتباره مرافعة جليلة عن محنة الشعراء في عصر غابت معه المؤسسات وتخلت فيه الدولة عن المبدعين إلا أن يقبلوا العيش في كنفها دعاة أو مبررين : " ومن يصدق " - والحديث له - " أننا لم نعرف بعد في بلادنا العربية كلها مبدعاً واحداً عاش من قلمه فقط، إنما عليه أن ينفق الساعات في وظيفة حكومية أو عمل صحفي أو أي شيء آخر يكسب منه رزقه .. وإنتاجه على الهامش حتى بعد أن يصبح للواحد منهم فوق السبعين كتاباً في السوق، مثل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، فإنه لا يستطيع أن يعيش منها. وأقل من عمل أعمالاً أخرى عير التأليف - وهو عباس محمود العقاد - كان يضطر أحياناً إلى بيع الكتب النادرة في مكتبته سراً وعلى استحياء ليواصل حياته البسيطة الزاهدة وليس له زوج ولا ولد ".

صورة كئيبة وقاتمة - رغم أنها واقعية - هذه التي رسمها الكاتب لظروف المبدع العربي وقد استطاع أن يكون المحامي البارع للدفاع من خلالها عن صديقه الشاعر الكبير الذي لم يكن - كما عبر في مقدمة المقال - قارئاً لشعره على الدوام وحسب، وإنما كان أيضاً معجباً به إلى آخر الحدود.

لقد قبل صلاح عبد الصبور الوظيفة ليعيش وليكتب شعراً جميلاً يضعه في المكان الذي أستحق عليه وصف " شاعر مصر الأول " وكان له زوج وأبناء وأشقاء وأب، ينتظرون من " شاعر مصر الأول " أن يجنبهم مرارة الحاجة، وهو في الوقت ذاته مواطن من أرض مصر له ما لكل أبنائها من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات، والوظيفة - أياً كانت - واجب قبل أن تكون وسيلة لكسب

الرزق، ومع ذلك فشقاء الفنان يأتي من الوظيفة كما يقول عنوان صغير في المقال نفسه، وقد يؤدي إلى وفاته المبكرة.

وإلى أن توجد المؤسسات الحرة، وحتى يجد الشاعر في جمهوره القارئ ما يحميه، ستبقى الوظيفة مصدراً للرزق ومصدراً للشقاء : " في بلاد لها ظروف بلادنا، يكون على الدولة بوصفها نائبة المجتمع، قيمة على تقدمه أن تيسر لهم هذا. ولكن الدولة في بلادنا لها في مقابل ذلك شروط أقسى من أن يتحملها ضمير الكاتب أو الفنان عادة فيؤثر أن يفني معظم عمره في وظيفة تكفل له قوت يومه. في حين تتمتع البيروقراطيات الأدبية التي ما وجدت إلا لخدمته، بالحياة المرفهة المريحة. فالذين يتحدثون عن التزام الأديب في بلادنا عليهم أن يضعوا في اعتبارهم بعض الحقائق، بدل أن ينقلوا نقلاً ببغائياً ما يقرؤونه عن التزام الأديب، في فرنساً مثلاً ... الأديب يحميه جمهوره ... وتحميه مؤسسات ثقافية حرة تدرك قيمة الفن حتى ولو خالفها، وفي بلادنا لا توجد هذه المؤسسات الحرة. ولا توجد الجماهير المثقفة الواسعة بعد. الفنان أو الأديب في بلادنا ينتج بلا حماية. ويبدع عاري الصدر مكشوفاً للطغيان، والشاعر الذي سألته مرة ماذا يفعل منذ زمن ... فرد علي قائلاً : " إنني أدافع عن قيثارتي، فلا مجال لأن أعزف ألحاني ".

ويختتم الكاتب مقاله أو مرافعته القيمة بأهم وأعمق تحليل قرأته عن الالتزام عبر منطق ذكي نفّاذ لظاهرة شاعت وذاعت وتداخلت فيها الاجتهادات الموضوعية حتى أصبحت وكأنها من فرط التعميم على درجة من الغموض والإبهام، يقول : " وتبقى بعد ذلك كلمة استكمالاً لإشارة وردت في أول الحديث عن التزام الأديب والفنان ... الذين يتحدثون كالببغاوات لا يسألون أنفسهم : بأي شيء يلتزم الأديب ؟ الأديب يلتزم بالقيم التي يؤمن بها هو. والمواقف التي يختارها هو. والرؤيا التي رآها هو. فهناك من يلتزم بقيم سياسية مباشرة. ومن يلتزم بقيم فنية خالصة. ومن يلتزم بقيم إنسانية شاملة.

المهم أنه يلتزم بما يختاره " هو " الالتزام به ... وليس أن يلتزم بما نختاره " نحن " له .. أو بما نلتزم نحن به. فدعوة التزام الأديب ازدهرت في بلاد أقترن فيها الالتزام بالحرية ... ولا يمكن أن يوجد التزام بدون حرية. لأن الالتزام هو في البداية اختيار. وهو بغير الحرية إلزام لا التزام. فإلزام السلطة للكاتب لا يجعله

كاتباً ملتزماً. وإلزام الرأي العام أو أي قطاع منه للكاتب لا يجعله ملتزماً. نحن نطلب من الفنان الالتزام بما نلتزم به نحن. وليس بما يلتزم به هو من قيم، وما يرتبط به من مجال يرى أن عطاءه فيه أخصب. ونحن بهذا النظر الضيق نخنق الفنان، ولا نجعله فناناً ملتزماً ".

ج- *في الرواية :*

يحاول بهاء في كل كتاباته النقدية المرتبطة بمجال الأدب أن يقنعنا بأنه ليس ناقداً، وأن أحكامه التي قد يصدرها على هذا العمل الأدبي أو ذاك ليست سوى انطباعات قارئ وإذا وافقناه على زعمه فهي انطباعات قارئ يجهد نفسه حين يقرأ ويجهد نفسه حين يكتب عما قرأ. وقصته مع ثلاثية نجيب محفوظ بين القصرين وقصر الشوق والسكرية تصلح نموذجاً لقارئ وناقد يعرف كيف يقرأ، وكيف يعطي نفسه للنص الإبداعي فلا يترك شيئاً آخر يشغله عنه أو يشاركه في الاهتمام. وهو في البداية يعترف أنه لا يقرأ الروايات الطويلة إلا قليلاً. ولقد جاء الجزء الأول من الثلاثية فأفسد عليه حياته وشده عن عمله ومواعيده وعن ارتباطاته اليومية، وعندما صدر الجزء الثاني قصر الشوق كان بالمصادفة مريضاً فوجد فيه وفي كتب أخرى رفيقاً يملأ عليه الفراغ. أما الجزء الثالث فقد اضطره إلى أن يسافر إلى الإسكندرية ليخلو إليه وحده.

" كانت الإسكندرية مزدحمة جداً، فهذا هو شهرها الحافل أغسطس، في كل خطوة تجد أصدقاء أو معارف ودعوات وارتباطات جديدة، لكنني تعمدت أن لا أرى أحداً، أغلب الوقت كنت أبحث على البحر عن مكان هادئ نسيه الزمان فأجلس فيه وأقرأ فيه رواية نجيب محفوظ وفي العصر أبحث عن مكان آخر على البحر وأجلس فيه، وأواصل القراءة إلى أن تغرب الشمس ويتغير لون الماء فيخضر ويغبر حتى تظلم الدنيا فلا ترى من السماء والماء سوى موجات بيضاء تتواثب على الشاطئ، واكتشفت أن الأنوار في المكان الذي أجلس فيه خافتة لا تصلح للقراءة، فمثل هذا المكان ليس للرجل الوحيد، إنه للذين يرون بعيونهم وقلوبهم معاً فهم لا يحتاجون إلى نور كثير، وأبحث عن مكان فيه إضاءة قوية فلا أجد سوى التريانون، فأستقر فيه وأواصل القراءة ... وكأنني أقضي هذين اليومين في ضيافة عائلة أحمد عبد الجواد التي يتحدث عنها نجيب محفوظ في ألف

صفحة، عبر ثلاثة أجزاء وثلاثة أجيال، تبدأ منذ سنة ١٩١٨ وتنتهي سنة ١٩٤٥ ".

أرأيتم كيف يجهد القارئ الجاد نفسه ليقرأ عملاً روائياً واحداً ؟ وقد أغفلت قاصداً الإشارة إلى السيارة التي نقلته من القاهرة إلى الإسكندرية وتفاصيل أخرى عن حياة الكاتب الذي يعمل ساعات طويلة ويكتب ويفكر في عشرات الأشياء كل يوم، وقد لا يعود إلى البيت إلا ليضع رأسه وينام. ذلك عن طريقة القراءة وما تضيفه إلى نقد العمل الأدبي من آفاق وخلفيات نجيب محفوظ القارئ ورفقته والاستمتاع بالتركيز على أدق التفاصيل. أما النقد فيأتي بعد ذلك. وقد يبدأ كما سبقت الإشارة بالاعتذار المألوف : " لست ناقداً لكي أحلل مزايا هذا العمل الشامخ الذي أعتبره أعظم عمل من نوعه في الأدب العربي، ولكنني - كقارئ لا كناقد - أستطيع أن أقول إن هذه القصة تعد أيضاً وثبة لا نظير لها عن مصر. أي شيء في مصر ليس فيها ؟ التطور الذي يتدفق كالنهر، كل النماذج التي عرفتها الحياة المصرية وأنتجتها الظروف المصرية، من المصلحين والملحدين والنساء الطيبات والمومسات والشيوعيين والإخوان المسلمين والساسة الوطنيين والمنحلين ... والأحزاب والإضرابات والثورات والمشاكل القومية والفكرية والاجتماعية والعاطفية، كل هذا في ملحمة واحدة. عمودها الفقري أسرة أحمد عبد الجواد من رجلها الأول إلى أبنائه وأحفاده.

إن كتب التاريخ التي تؤرخ مصر خلال هذه الفترة تروي الأحداث من الظاهر أو تفسرها بظروفها التاريخية، أما نجيب محفوظ فقد رواها لنا من الباطن: الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تحولت كلها إلى رجال ونساء ولحم ودم ومشاعر وخلجات ... ورأيناها تتفاعل لا في الثورات والحوادث وتقلب الوزارات فحسب، ولكن في علاقة الزوج بزوجته، وفي الاستطراد الداخلي لخواطر امرأة طيبة، وفي رغبات شاب وفي كلمات الأطفال أيضاً، إن كل شخصية من الشخصيات كانت تزدحم بها الرواية تحتاج إلى تأمل خاص وبحث مكرس لها، هذه الشخصيات كانت تزدحم حولي وتنقلني من الإسكندرية ومن التريانون الذي أجلس فيه إلى جوها الخاص من بيوت ومقاهي وأزقة وندوات، فلا أنتبه إلا والساعة الواحدة ليلاً وخدم التريانون قد بدءوا يرفعون الكراسي ويطفئون

الأنوار فأغلق الكتاب، وأركب عربة حنطور، تمشي بي على الكورنيش في بطء شديد، حتى أبلغ البيت ".

ماذا سيكون النقد الأدبي إن لم يكن هذه الإحاطة الجادة التي تمكن القارئ من النفاذ إلى روح العمل الروائي وإلى إدراك بنية العلاقة القائمة بين الخطاب الإبداعي من ناحية، والواقع الذي صدر عنه من ناحية أخرى، مع ملاحظة أن هذه العلاقة تأتي في إطار من الفن الذي لا يجعل من المبدع مؤرخاً أو منشغلاً بظواهر الأشياء. ولو أن كاتبنا الكبير قد ترك تواضعه جانباً وتسلح بأي منهج من المناهج المدججة بالمصطلحات الغامضة لكان قد أصبح واحداً من فرسان النقد الأدبي في العصر الحديث.

٢- الفن :

استطاع أحمد بهاء الدين أن يقيم جسوراً قوية بين الفكر والفن والأدب، فكتب عن المسرح وعن الموسيقى وعن التصوير، وشغله سيد درويش بألحانه وبالكلمات التي غناها، وشغلته الفنون التشكيلية وكان من محبيها وزوار معارضها، وفي روز اليوسف كما في صباح الخير، وفي المصور والأهرام فتح أبواب صفحاته وأعمدته لتكون شرفات واسعة يطل منها القارئ على ما يضطرب في جوانب الحياة العربية والعالمية من أصداء المعرفة وإيقاعات الفن. ولذلك فقد كانت كتاباته المتنوعة في مستوى النهار الذي يختلف لونه بين فجر وضحى وأصيل وغروب مع احتفاظه دائماً بدرجة عالية من السطوع والقدرة على الإيصال. وقد كتب ذات مرة ما يشبه البيان أو الدليل الذي ينبغي أن يسير عليه في تناوله الفنون، ومما جاء فيه قوله : " إنني أحاول منذ زمن، في مجال الكتابة عن الأعمال الفنية أن أضع على نفسي قيداً أتمنى لو وضعه الآخرون على أنفسهم، فقد أصبح النقد الفني مع الأسف مجالاً لكل من هبّ ودبّ. كل من لديه فرصة الكتابة في جريدة أو مجلة، لا يجد أسهل من أن يرى رواية أو مسرحية ثم ... هات يا نقد !".

وكثيراً ما يقرأ المرء في هذا المجال كتابات يندى لها خجلاً لفرط ما تكشف عنه من انعدام أي ثقافة فنية على الإطلاق ! دعك من بورصة المجاملة

والنفاق والمصالح التي أصبحت عارية مكشوفة لا تكلف نفسها جهد التستر، وما أكثر ما يتركه هذا بجهودنا المسكينة من تضليل وتشويه وتشويش. هكذا قلت لنفسي : أبدأ بنفسك وإذا كان ما لديك من ثقافة فنية قليلة يبيح لك أن تتحدث أحياناً بلهجة إنصاف الهواة ... فلا داعي ! ولتكتب - إذا كتبت - عما يدخل في اختصاصك من قضايا عامة تتفرع عن الأعمال الفنية ! ".

وكما تشكل الوشائج النغمية للكلمات والحروف العربية قاسماً مشتركاً بين كل أبناء الأمة العربية الواحدة، فإن موسيقى الأغاني تفعل ذلك أيضاً، ولعل المستوى الذي تضيفه الأصوات العذبة للفنانين المبدعين العرب إلى الألفاظ والمعاني تجعل هذه الوشائج تقوى وتتسع. وهذا ما حرص أحمد بهاء الدين على تأكيده وهو يواصل دفاعه الرصين عن الفنانة الكبيرة فيروز التي تردد كثيراً أن الغيرة الحمقاء لبعض الفنانين في مصر قد جعلتهم يحاصرون صوتها العذب ويسعون إلى مصادرته وإغلاق فضاء مصر الواسع في وجهه، يقول بها : " كتب المصور أكثر من مرة عن موضوع الفنانة العربية اللبنانية فيروز. كتب عن فنها الرفيع وجمهورها العربي الواسع، وعن الإحساس الكائن لديها ولدى الكثيرين من أن مصر لا ترحب بها، أو أن هناك قراراً يمنع أغانيها في مصر أو أي شيء من هذا القبيل. وقال المصور أكثر من مرة إن هذا الإحساس غير صحيح، وإنه إذا كانت هناك في هذا المجال مواقف فردية من بعض الناس فليس في الأمر موقف من مصر الجمهور، ومصر الدولة بدليل أن التزاوح الفني على أعلى مستوياته قائم، فالفنان المصري الأول محمد عبد الوهاب لحن لفيروز، والفنانة فيروز غنت لعبد الوهاب من أغانيه العذبة " يا جار الوادي " و" خائف أقول "، غنت وتغني من تراث سيد درويش ... ".

هكذا هو الكاتب الكبير دائماً ينتصر للعروبة، للتجربة والصدق في الفن والأدب، يدافع عن قيم الجمال والحرية. وعندما يتحدث عن أعلام الفكر والأدب أمثال طه حسين والعقاد والحكيم نراه لا ينسى أن يضيف إلى قائمة الأسماء محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز بوصفهم البعد المكمل لقائمة الإعلام في مجال الفن والفكر والإبداع.

وبعد : فإن المحور الثقافي في كتابات أحمد بهاء الدين يظل في حاجة دائمة إلى قراءات أخرى، تكشف عن صلته العميقة بالواقع الذي صدر عنه لتدخلنا إلى رحاب هذا الكاتب الكبير الذي عرف كيف يتجاوز المسارب والانعطافات الضيقة ويعبر من فوق الطارئ والمتغير ليغور في كل ما هو عميق في حياة الناس وثقافتهم، وسوف تكشف لنا قراءة كهذه مزيداً من ملامح هذا المثقف المستقبلي الذي جسد دائماً جدارة المثقف العربي وقدرته على رسم خرائط المستقبل وأهدافه وجوهر قضاياه. ولاشك أن ثقافته الواسعة قد حمته من عالم السياسة وتقلباته، وهي نفسها التي احتفظت لكتاباته بقدر كبير من الصدق والصفاء وسط سلسلة الإحباطات التي واجهت طموح الوطن العربي على مدى الثلث الأخير من القرن العشرين.

المرجع / من حملة مشاعل التقدم العربي :

أحمد بهاء الدين

مركز دراسات الوحدة العربية

ط٢ يوليو ١٩٩٧م.